في الأخلاق

حديث نبوي في الأخلاق

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد أحمد العدوي

من كبار العلماء ومدرس بالقسم العالي بالأزهر

عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا أبا ذر : لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق » رواه ابن حبان في صحيحه .

عرضت لهذا الحديث في صحيفة المعلمين لأنه من الأحاديث التي ينبغي أن يحفظ مثلها الطلاب ، ويحرص على بيانها الأساتذة ، فهو يفيدهم في لغتهم ، كما ينفعهم في أخلاقهم وتربيتهم وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم .

يرينا في الكلمة الأولى منه أنه لا عقل كتدبير المال وصيانته من التبذير والسرف ، وأن فائدة العقل إنما تتجلى في مثل ذلك العمل المجدي : ولو أن الناس عرفوا قيمة المال ما فرطوا ذلك التفريط ، ولحرصوا عليه حرصهم على مرافقهم ومصالحهم ، لو عرفوا قيمة المال لعلموا أنه عدة الحياة ، وسبيل العزة والكرامة ، ولا غنى لأمة من الأمم عنه ، لا في معارفها ، ولا في صناعتها ، ولا في حربيتها ، وحسبنا أن الله تعالى يقول فيه : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » .

فالقرآن الكريم يرشدنا إلى أن قيام مصالح الناس في دينهم ودنياهم في المال : وأنهم إن فرطوا فيه وأضاعوه في شهواتهم وأهوائهم إنما يضيعون مصالحهم ومرافقهم ، ومن أجل ذلك حالت الشريعة بين الرجل وبين حقه الطبيعي ، في هيمنته على المال الذي ورثه عن أبيه ، أو حصل عليه من طريق شرعي ، وضربت عليه الحجر ما دام سفيها لا يحسن التصرف في ماله ، ولا يدري كيف يرعاه ويحفظه .

لو أن الناس فطنوا لذلك التشريع في الإسلام لاستطاعوا أن يعرفوا قيمة المال ، ولاستطاعوا

أن يفقهوا قيمة هذه الحكمة النبوية « ولا عقل كالتدبير » فأن العقل إنما وهبه الله للنظر فى عواقب الأمور وما تصير إليه من صلاح أو فساد، وأهم شيء ينظر فيه العقل إنما هو تدبير المال

كما يرينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكلمة الثانية « ولا ورع كالكف » أن أكبر مظهر لورعه وتقواه كفه أذاه عن الناس ، وهو الذى يدل عليه الحديث « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » وأن الذى يدعى التقوى ولم يكف أذاه عن الناس كاذب فى دعواه ، ولو كان ورعا لتحرج من الأذى ، وابتعد عن أن يتعرض للناس بسوء .

أما الكلمة الأخيرة « ولا حسب كحسن الخلق » فما أجدرها بالعناية ، وما أحقها بالإجلال والإكبار ! يرشدنا فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن أكبر ما يحسب للانسان من مفاخر، ويوضع فى كفة أعماله من حسنات هو حسن الخلق، وأنه جامع سعادة الدنيا والآخرة.

وأولى الناس بتقدير هذه الكلمة رجال التعليم والتربية ، فما أحوجهم إلى حسن الخلق فى مهمتهم الشاقة ، وعملهم المضنى ، وإذا كان الناس فى حاجة إلى حسن الخلق فى معاملة بعضهم بعضاً فأن حاجة الأساتذة إليه أكبر وأكبر .

إن من يمارس مهنة التعليم ، ويرى أن الطلبة جد متفاوتين فى بيوتهم وبيئاتهم واستعدادهم، يعرف أن لا غنى لأستاذ عن سعة الصدر ، وحسن الخلق ، واحتمال ما عسى أن يصدر من أولئك التلاميذ من غلظة ، وما يصدر منهم من جهل وسفه ، ومن حق الأستاذ أن يحرص الحرص كله أن تكون صلته بتلاميذه صلة روحية ، يشعر فيها التلميذ بأنه مربٍ شفوق ، ووالد رحيم ، إذا قسا فأنما يقسو لمصلحته ، وإن اضطر إلى عقوبة فأنما يريد أن يقوم معوجه ، ويصلح شأنه ، على الأستاذ أن لا يلجأ إلى العقوبة إلا مضطراً ، ولا يعمد إليها إلا حيث أعيته الحيل من طريق الاقناع .

وليس من الانصاف أن نكلف الأستاذ ألا يعاقب تلميذاً ، فأن طبع التلاميذ ، واختلاف تربيتهم وبيئاتهم تجعل فيهم السهل والصعب ، والشديد واللين ، ولم يحدثنا التاريخ أن مدرسة قامت على الترغيب دون الترهيب ، والمكافآت دون العقوبات ، وإنما الذى نستطيع أن نطلبه إلى الأستاذ ألا يكون حريصاً على إيذاء تلاميذه ، مشغوفاً بعقوبتهم ، بل يعاملهم دائماً على قاعدة الاقناع ، فأذا لم ينجح من ذلك الطريق ، كان له العذر فى اختيار طريق العقوبة .

قد يجد الأستاذ فى ذلك التلكؤ شيئاً من الصعوبة ، ولكن إذا فطن لما يتبع ذلك من أثر صالح فى نفوس تلاميذه وطلابه، وعلم أن ما يصنعه معهم اليوم يصنعون مثله مع تلاميذهم فى الغد ، وأنه سيكون قدوة صالحة فى التربية ، ومثلا عالياً فى الأخلاق ، وأن طلبته سيحفظون هذه الأيدى ، ويذكرون له تلك المكارم ، وأن الله تعالى سيأجره على هذه المعاملة الصالحة الرشيدة ، ويحتسب له جهاده فى هذا السبيل كما يحتسب لكل العاملين المخلصين، متى عرف الأستاذ ذلك هان عليه ما يجده من صعوبة ، وما يلاقى من شدة ، وآمن بأنه من بناة الأخلاق ، وحماة الفضيلة ، ومن عرف الغاية هان عليه الطريق .